



## حكاية النساء الواقعيات (\*)

تقدم لي لالة مليكة الشاي. إننا جالستان في صالون متواضع مطل على حديقة صغيرة جدا. أشعر بالراحة في بيتها، بوثام مع نفسي، ومع العالم. أي عالم يا ترى؟ أهو عالمي الموسوم منذ ربع قرن بالبحث عن تركيب ثقافتين وجمع شملهما؟ أم عالمها الذي لا يكاد يتغير، والمختلف جوهريا عن عالمي؟

لالة مليكة والدة صديقتي فريدة المتزوجة في فرنسا منذ بضع سنوات. عندما رحلت فريدة، «ورثتني» أمها، إذا صح القول. ارتبطت، أنا التي لم تعد لي أسرة بصداقة مع هذه المرأة التي تشتت أولادها. لا تزورني لالة مليكة أبدا، لا تأتي إلى الفيلا التي أقطن فيها بالسويسي، فأنا التي تقصد دائما منزلها الصغير بحي الليمون. وعندما أصل عندها، ألع عالما يتميز بالهدوء والسكون. تتكلم مليكة بصوت منخفض، وهذا يتطلب مني كل مرة مجهودا لكي أصغي إليها. يقترب القط بخطى

---

(\*) سابين وولبريشت. ألمانية مقيمة في المغرب منذ أكثر من ثلاثين سنة.  
ترجمة: عبد الفتاح كيلطو.

ملاحظة واضع الكتاب د. لشهب: جرت العادة في ندوات ومؤتمرات الجمعية العالمية لإريك فروم أن تختم أنشطة هذه اللقاءات بنص أدبي أو موسيقي أو فني على العموم تكون له علاقة بموضوع اللقاء. و يعتبر نص السيدة سابين وولبريشت بمثابة تلخيص جيد لأعمال ندوة فاس هذه.



رشيقة ويشد نفسه إلى حضني. أشرب الشاي وتحدث عن أشياء مختلفة. لا توجد بيني وبين مليكة تلك الحاجة المحمومة إلى رواية أشياء خصوصية وإفشاء أسرار. أكيد بيننا كلمات، جمل، تأكيدات، تبدو معلقة في الهواء، خفيفة، مع أنها تربط بيننا بطبيعتها العابرة.

وفعلا لم ألتق أبداً بشخص له سكينتها، على الأقل سكينتها المعدية. لحظات الصمت الطويلة بيننا كانت مفعمة بالدلالات: ما أكثر الضجيج في العالم، جعجعة بلا طحين.

مرت سبع سنوات على وفاة زوجي وابنتي الوحيدة في حادثة سير. مكثت في المغرب، لم يكن هناك ما يجذبني إلى مسقط رأسي، ألمانيا. أعيش في بيتنا الرحب أكثر من اللازم لكوني الوحيدة التي تعيش فيه. أعيش بين الصور الشمسية، نسبة أميال لحياتنا المشتركة، لوجودي الذي صار أكثر فأكثر وهمياً.

مليكة أيضاً أرملة، تتحرك مثلي باحتشام بين صور أقربائها: الابن البكر في ستوكهولم مع زوجته وأطفاله، ابن ثان في شيكاغو، ابنة في الداخلة بفستان عرسها، كلهم في مكان بعيد. ألقى التحية على أب مليكة المعلق عالياً في إطار خشبي جميل: سيد مسن، ذو لحية طويلة بيضاء، ووجه محفوف بغطاء رأس جلابيته. صورة أخرى بالأبيض والأسود يبدو أنها أخذت بمناسبة حفلة. نساء مصطفات على شكل نصف دائرة حول سيدة عجوز، نساء تختلف أعمارهن، يرتدين القفطان، مرتبات الشعر، بيتسمن. في واجهة المشهد، توجد مائدة منخفضة عليها غطاء أبيض وضعت فوقه باقة زهر كبيرة. خلف دائرة النساء، مصراعاً باب مفتوحان على مرآة بندقية بديعة. شرحت لي مليكة: «أمي، أخواتي، بنات خالاتي، خالاتي».



ليس باستطاعتي أن لا أتذكر صورا أخرى: ذكرى مرور خمسين سنة على زواج جدي وجدتي مثلا، مع صفين من النساء خلف الزوجين المسنين، كلهن بفستان طويل، متجمدات شيئا ما خلف باقات الزهور التي تحتل واجهة المشهد. رجال قلائل، لا شك أعفوا من الخدمة العسكرية.

رغم تفاوت يسير، تتشابه الصور، وتتشابه العوالم في نهاية الأمر. العشرة خلال احتفال، أو خلال نزهة في الغابة، دائما مجتمعة. ثم غياب الرجال الذين ذهبوا إلى الحرب أو إلى قارة أخرى بحثا عن عمل... تفاوت بين جيلين، وإذا بالصور تصوير مماثلة: والد جدي يهاجر إلى الولايات المتحدة وشقيق الجد إلى الدنمرك؛ أخوان لمليكة يرحلان إلى فرنسا للعمل عند رونو.

النساء ينتظرن الرجال؛ بعضهن يتبعنهم ويعشن جنبهم في مكان آخر؛ وبعضهن يبكين بلا عزاء الرجل الغائب ويلبسن حدادا يقرض كيانهن من الداخل. لكن هناك أخريات - أسمىهن النساء الواقعيات - يدبرن حدادهن بصفة مختلفة...

خلال الحرب، في فرنسا المحتلة، قتل ماكس، زوج شارلوط، أخت أبي. لما وصل نبأ موته إلى برلين، انهارت أمي التي كانت تتعاطف كثيرا معه لهول الصدمة. هرعت باكية، وقد نسيت أن تلبس معطفها عند سلفتها لتواسيها وتكون بجانبها في هذه اللحظة الفظيعة.

وجدت شارلوط في غرفة النوم، أمام مرآة كبيرة، وهي تجرب بعض القبعات. ارتمت أمي على الفراش وهي لا تصدق ما ترى؛ خرساء ومرتبكة، أنعمت النظر أولا في شارلوط، ثم في القبعات الثلاث



المعروضة فوق الفراش، ثم في الثياب السوداء المعلقة على بابي  
الخزانة الكبيرة المفتوحين. من درج الصوان تتدلى عدة أزواج من  
الجوارب الحريرية...

همست بصوت لا يكاد يسمع: «لكن، يا شارلوط، ماذا تفعلين؟»

دون أن تفارق ثانية صورتها في المرآة، سوت شارلوط حجاب قبعتها  
الصغيرة، الأنيقة جدا، وذات الشكل العسكري.

«يا إلهي، مارطا، لا يمكنك أن تتخيلي إلى أي حد أنا حزينة!»

ترفع الحجاب (على الدنتيلا الرقيقة طرزت، أسود على أسود، باقات  
ورود صغيرة جدا) وتمسح برفقة عينيها بمنديل موصلي.

أمي لا تنبس ببنت شفة. تعلم شارلوط أنها تستهجنها.

«يجب مع ذلك أن تقري، يا مارطا، أن هنا مسألة مراسيم... ورتبة!

في فرنسا...»

أضافت بنبرة عنيدة، بينما تمادت أمي في صمتها:

«أخي برونو ليس سوى ملازم أول. إذا ما أصابه شيء فلن تكوني

ملزمة ب... لكن ماكس عقيد! ومن واجبي أن أظهر بمظهر لائق أمام

كل هؤلاء الضباط... في فرنسا!»

أمي هادئة جدا الآن، لقد كفت عن البكاء. الأجانب ليسوا بالضرورة

أولئك الذين يقطنون في بلد آخر ويتكلمون لغة أخرى. فجأة فهمت أن

الأجانب الأكثر بعدا قد يكونون من الأسرة.

قالت: «أنصحك بلبس القبعة المستديرة والثوب ذي الطوق الصيني.

ستكونين حينئذ هناك الأرملة المذهلة أكثر.»



تتذكر ماكس وهو يرفع كأسه بحركة عسكرية. إنه جميل في ستره السموكن: «لنشرب نخب زوجتي الفاتنة، والممتازة دائما!» يسخر برقة من شارلوط، يعرفها جيدا ويحبها كثيرا.

تفك شارلوط أحد الأثواب ثم تقربه من جسمها وتتأمل نفسها في المرأة بعين ناقدة. لا تلاحظ أن أمي تغادر الغرفة.

ثلاثة أيام بعد ذلك، استقلت شارلوط القطار إلى باريس. جلست في مقصورة من الدرجة الأولى، ووضعت ورقة نعي أنيقة على اللوحة أسفل النافذة؛ يمكن للمارة أن يقرأوا فيها: زوجي العزيز الحبيب... العقيد ماكس كونراد يانوفيتس... ضحى بحياته من أجل وطنه... أرملته شديدة الحزن... أستحضر هذا المشهد أمام مليكة.

- الحداد يعاش بصفة مختلفة عندكم، أليس كذلك؟ من الصعب تصور حادث من هذا النوع في المغرب!

أفكر، وأنا أقول هذا، في الدموع المتدفقة، والنساء بالثياب البيضاء وقد انهرن كلية.

- أوه، ليس هذا صحيحا!

تحكي مليكة وفاة أبيها التي حدثت حين كانت في سن الخامسة عشرة.

- كان أبي راقدا في فراشه؛ جسده يبدو هزيلا حتى تحت الغطاء الأبيض. كان الجو حارا في البيت. من حين لآخر، تدخل أمي إلى الحجرة وتلقي نظرة باتجاه الفراش. كان نائما. حوالي العاشرة مساء، صار تنفسه شاقا أكثر فأكثر. حاول دون جدوى أن يرفع رأسه. مرت يده البيضاء والضعيفة على الغطاء كأنه يسعى إلى أن يخط عليه كلمات، أرقاما،



رسالة مبهمة وغير تامة على كل حال.

كنت قد تسللت إلى الحجرة وكنت أنظر إلى أبي خفية. لم أكن أعرف عنه إلا القليل. كنت البنت الأخيرة، وبالنسبة لي كان دائما رجلا عجوزا. كان يصعب علي أن أتخيله شابا قويا، كما كان يصعب علي أن أتخيل أن أمي كانت في مثل سني عندما تزوجته.

سعل. اقتربت من الفراش، وبعد أن أسندت رأسه إلى ذراعي اليسرى، قربت إليه كأس ماء بيدي اليمنى. بلع بجهد كبير بعض القطرات، وعيناه مغمضتان. وضعت رأسه ثانية على المخدة. أشارت لي أمي من الباب أن أبتعد عن الفراش، فخرجت على أصابع رجلي.

الصمت دائما، المسافة دائما. عندما يكون في البيت، يلزم الصمت؛ وكما لو كانت هناك جدران سميقة، فإن أمي كانت تحميه من ضحكاتنا وضجيج ألعابنا. أحفظ بذكرى غامضة: كنت، وأنا صغيرة جدا، على ركبتي أبي؛ أطلقت صيحات صغيرة من السرور وأنا أجذب لحيته وأحك خدي على خده الشائك بلذة. رفعتني أمي توا من بين ذراعيه وسلمتني بلا تأخير إلى حراسة أختها حفيظة.

في ذلك اليوم أيضا، تملكني شعور غريب بأن أمي كانت تريد الاستئثار به. جرت كرسيا قرب الفراش ولم تعد تفارق الحجرة.

في الصالون، كنا ننتظر النهاية ونحن منحنيات على التطريز؛ أخواتي فاطمة وحفيظة وعائشة، وخالتي محجوبة وبنت خالتي زبيدة.

حوالي الحادية عشرة، ظهرت أمي على عتبة الصالون وهي ممتعة.



همست: «انتهى كل شيء».

تمايلت، هرعت حفيظة وفاطمة لإسنادها، ثم قاداتها إلى مقعد.  
بكت بصمت بينما همست خالتي محجوبة بآيات من القرآن.

سرنا لنرى الفقيد. أمام جسد أبي الميت، اكتسى ألمي فجأة شكل  
أسف ملهب: لمدة خمس عشرة سنة عشنا بالتوازي، لم تلتق حياتي  
بحياته إلا نادرا، لن أعرف أبدا من كان هذا الرجل.

كانت أخواتي وابنة خالتي يشهقن. جذبت خالتي الغطاء الذي فوق  
الجسد ووضعت على رأس الميت. ابتداء من تلك اللحظة، صار أبي بلا  
وجه. بعزم ولكن دون أن تقول كلمة، دفعتنا محجوبة خارج الحجرة  
وأقفلت الباب.

في الصالون وجدنا أمي دائما في الوضع نفسه، كانت تبدو متحجرة.

سألت محجوبة بصوت خفيض: «الجيران؟»

صاحت أمي وهي تنتصب: «لا، لا! الدار أولا!»

قالت محجوبة: «فكرت في الشيء نفسه».

كنت أصغي إليهن دون أن أفهم شيئا، كن على ما يبدو يحلن على  
نسق ما. قامت أمي متصلبة. خالتي واقفة بجانبها وتستعد لإلقاء كلمة  
علينا. تملكني فجأة انطباع أننا نشكل مجموعة صغيرة مسلحة قد كلفت  
بمهمة سرية. لم أكن مخطئة!

قالت محجوبة: «كان الحاج إبراهيم مريضا لمدة طويلة، والدار في  
حالة يرثى لها وقد تجلب لنا العار أمام الجيران. قبل أن نعلن موته، لا  
بد، هذه الليلة، أن نهتم بالدار. الحاج إبراهيم يقر تصرفنا، صدقني!»



وكضابط عينت لنا واجباتنا: غسل المراحيض، تبييض حيطان المدخل والممر والسلم، قلب الأفرشة وتبديل غطائها، تنظيف الزرابي بالفرشاة الخ، إجمالاً كان علينا في تلك الليلة أن نقوم بتنفيذ برنامج نظافة كبير. اشتغلنا بصمت، اشتغلنا لعدة ساعات. كلما كنت أعبر الممر، لم يكن بمقدوري أن أمتنع عن إلقاء نظرة صوب الحجرة المقفلة حيث توجد جثة أبي. لكن الموت كان يتراجع، وصار إدراكه متعذراً وخيالياً أمام عملنا العنيد الذي بدا وكأنه لن ينتهي أبداً.

حوالي الرابعة أعدت أمي الشاي؛ تناولنا أيضاً شيئاً من الخبز بالعسل. كنت منهكة بالعمل ومسحوقة بعبث الموقف.

قالت لي خالتي: «أراك شاحبة ممتقعة. أنت صغيرة جداً، لكنك امرأة! وسوف تفهمين.»

لكنني لم أكن أفهم. كنت أشعر كأنني مجبرة على اقتسام سر لم أكن أرغب إطلاقاً في معرفته. أمي لم تكن تأكل، كانت تشرب شايها دون أن تتكلم. من المؤكد أن خالتي هي التي كانت تدير العمليات وهي التي، خلال هذه الاستراحة الغريبة، كانت تسلينا بحكايات.

روت أن «فلاحة فقيرة كانت تربي ديكاً أبيض، ديكاً جميلاً ومختالاً يشكل في الواقع كل ما تملك. ذات يوم مات زوجها. فماذا فعلت، يا عزيزاتي، هذه المرأة المسكينة؟ عوض أن تستنفر الجيران حالاً بصياحها، ذهبت براحة بال الديك الأبيض وصنعت منه طعاماً لذيذاً اقتسمته مع أطفالها، ثم قالت لهم: «الآن وقد أكلنا جيداً، سنكون قادرين على الصراخ والبكاء، ولن ينتهي ديكنا الجميل في كسكس الآخرين!» فيا للعجب من حكمة هذه المرأة البسيطة!»





استأنفنا العمل. كنت متعبة جدا وكانت الفرشاة تسقط من يدي. استلقيت فوق الزربية، كنت أرغب فقط في لحظات من الراحة. ابنة خالتي زبيدة هي التي أيقظتني حين هزتني بشراسة. كانت الساعة تقارب السادسة، والدار منظفة. كانت أمي قد هيأت القهوة وعطر القرفة يملأ المطبخ. شربنا القهوة، وحال تعبي الشديد بيني وبين أكل خبز أو بيضة كما فعلت الأخريات.

بالتناوب باشرنا تنظيف أنفسنا بسرعة في مغسل صغير كان يوجد بالفناء، ثم تلاقينا في الصالون دون أن ننسب بنت شفة وقد سقطنا من التعب على أفرشة نظيفة.

حوالي الساعة صباحا وزعت أمي علينا ملابس بيضاء. كل شيء كان جاهزا منذ زمن طويل. ساعدتني على لبس جلابية فوق قميصي. أمي! أحسست فجأة بحنان ممزوج بقلق تجاهها. كم كانت شاحبة وهزيلة! لم أكن أرغب أن تفارقني هي الأخرى! وأنا منهكة، بكيت.

اختفى شعرنا المهذب تحت حجاب أبيض، أجسادنا أيضا كانت ملفوفة بالأبيض. فتحت أمي بلطف باب حجرة الميت بينما بقينا نحن مسمرات فوق مقاعدنا، وقد انغمرنا فجأة في انتظار محموم. غابت ثم عادت بعد قليل بكومة من المنسوجات البيضاء. وزعت بصمت على كل واحدة منا منديلا مطرزا بمهارة. وكما لو أن أمرا غير مسموع قد صدر، شرعنا حينئذ جميعا في البكاء. بخطى احتفالية توجهت أمي وخالتي إلى باب الدار وفتحتا مصراعيه.

من الخارج، من الزقاق، وصلني صياحهما المفعم بالألم.

مليقة تصب لي شايا آخر. أشعر بتعاطف تجاهها، بعرفان للجميل



لا أستطيع أن أسميه.

- تقولين، يا مليكة، إن ثياب الحداد كانت جاهزة في منزل أمك،  
أخشى أن لا أفهم هذا.

- النساء في فاس، على الأقل نساء الجيل القديم، لهن كل شيء في  
بيوتهن، بما في ذلك كفنهن وقارورة من ماء زمزم. قبل الذهاب إلى  
سفر، يرتبن بيوتهن ويحملن معهن كفنهن، في حالة ما إذا...

ما أغربها من طريقة في التعامل مع الموت! أن تكوني دوما مزودة  
بمعداته، واعية بحضوره باستمرار! أتمنى أن أفهم النساء اللواتي تحدثني  
عنهن مليكة. خضوع للموت؟ تحدُّ لسلطته؟ تمرد جريء على هيمنته؟  
أفكر في «ريلكه» الذي قال في قصيدة مؤثرة إن الموت عظيم وإننا  
ملك له؛ وفي قلب الحياة يتجاسر على البكاء داخلنا...

الشعر، الفن، التنظيف الشامل للبيت، وحتى تناول الشاي مع  
صديقة حكيمة: كلها طرق لتحمل عرضية وجودنا التي لا تطاق.